ولم تكن عدوبة التملق التي ابداها سفراء القيصر إلا لتزيد في قناعة السلطان بأن الساعة قد ازفت لكي ينتقم التتر من الهزائم والإهانات التي انزلها القيصر بهم من قبل . وقد طالب السلطان بإعادة قازان واستراخان ، فإذا لم يكن فدفع جزية سنوية .

ولم يكن إيڤان يتوقع تلك السرعة المعجزة التي استطاع بها التتر أن يتحركوا بها في الربيع . فقد ردت جماعات لا حصر لها من الفرسان على نداء الخان(*) كما لو أن ساحراً بعثهم بعصاه . ولم يكونوا قد قاموا بأي إمداد ولا حصلوا على اي تموين ، وإنما هي قوة لا تقاوم تقدمت من الجنوب كسحابة مشحونة بالأعاصير . وغرقت موسكو بالذهول . ولم يكن لدى القيصر وقت لاستدعاء جيشه من الشمال الغربي بينما لم تكن الفرق المتمركزة على الأوكا تمثل إلا قبضة من الرجال . وقد ترك القيصر حفلات لهوه وقصوفه في موسكو مرتين لزيارة جيشه على أمل أن يرفع ذلك من مركزه . وكانت إهانات الخان قد سبقت القبيلة في مسيرتها ، وقام ديفليت غيراي بتحدي القيصر لمنازلته في معركة فردية لكي يقطع اذني هذا الطاغية ويرسلهما للسلطان. ولم يكن يشك في انه سيكنس كل شيء يقف في طريقه . ولم يكن إيڤان غبياً ولا بطلاً فرأى أنه لا يستطيع مقاومة تقدم مائة الف من التتر الغاضبين تساندهم فرقة من اللاجئين الروس .

بعد هجوم جانبي على بييلسكي وموتيسلافسكي تقدم الخان بسرعة إلى سيربوخوف حيث كان القيصر يعسكر مع القسم الأكبر من الأوپريتشينا. ولم يكن إيڤان يريد أن يموت في النزال ولا أن يتعرض لخطر الوقوع أسيراً في يد عدو لا رحمة لديه . وهكذا فر من ساحة العراك حتى الكسندروف ، ولكنه لم يشعر هناك بالأمان فقرر اللجوء إلى وسط جيشه في الشمال الغربي واستمر في انسحابه في اتجاه ياروسلاف .

(*) يقصد بالخان لخان القرم التتري وكان تابعاً للسلطان العثماني . — المترجم —